

الإسلام المناهض الأوّل للتمييز العنصري



(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ) (الحجرات/ 13). إنّه حديث إلهيٌّ عن التنوّع والتمايز الذي يريد الله تعالى من خلاله الملتقى التعارفي بين الناس من أجل تكامل الإنسانية من دون أن يؤدّي ذلك إلى التمييز بينهم، والذي ينحصر في نظرة الله تعالى في عنوان واحد هو «التقوى». فقد رفض الإسلام أنواعاً كانت وما زال العديد منها عنواناً للتمييز السلبي بين الناس.

كان الجاهليون يميّزون بين الذكر والأنثى بأشع أنواع التمييز الذي يعبّر عنه القرآن الكريم: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (النحل/ 58-59). وكانوا انطلاقاً من هذه النظرة يقتربون بأشع أنواع الجرائم التي يعبّر عنها القرآن الكريم بقوله: (وَإِذَا الْوُءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) (التكوير/ 8-9). وجاء الإسلام ليرفع هذا التمييز البغيض، وليعطي القيمة المعنوية للأُنثى، فتعبيراً عن النظرة الإلهية قال سبحانه: (أَنرِي لَآ أُضْرِعُ عَمَلٍ غَآمِلٍ

مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرِهِ أَوْ أُنْذِرَ (آل عمران/ 195). وعن بيان قيمة الأُنثى ومكانتها، فعن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «خيرُ أولادكم البنات».

وهناك التمييز الذي عانى منه العالم قديماً وما زال يعاني منه أصحاب البشرة السوداء في كثير من بلدان العالم. وقد رفع الإسلام منذ بداية الدعوة شعار «لا فرق بين أسود وأبيض إلا بالتقوى». ومن المشهور في السيرة أنَّهُ جُعِلَ المؤذّن الأوّل، وصاحب نداء التوحيد الإلهي بلال الحبشي الأسود البشرة. وفي كربلاء تردّت كلمة جون الأسود خارقة جدران التاريخ حينما وضع الإمام الحسين (عليه السلام) خدّه على خدّه وهو يشارف عتبة الشهادة: «مَنْ مثلي وابن رسول الله وضع خدّه على خدّي». وقال المستشرق النمساوي أوبرمان جوزيف في كتابه مهد الإسلام: «إنّ سيرة محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) من أشقى الأمور على الدارس أو الباحث؛ لأنّ نبوغه من النوع المركّب الغريب، فهو بحقّ أوّل مَنْ أنهى التفرقة العنصرية في قول بسيط شامل «المسلم أخو المسلم». لقد حلّ القضية بثلاث كلمات. أمّا اليوم فمشكلة العنصرية انعقدت بشأنها عشرات المؤتمرات ومئات الكُتُب دون جدوى، ويقيني أنّ الحلّ لن يأتي إلا في القرن القادم، ولكن محمّداً حلّها منذ ثلاثة عشر قرناً».

بناءً على ما تقدّم حدّر الإسلام من احتقار أحد بناءً على المظهر والعرق واللون وغيرها. فعن الإمام عليّ (عليه السلام): «إنّ الله أخفى اثنين في اثنين، أخفى أوليائه في عبادته، فلا تدري حينما تلقى أيّهم وليّاً؟». وفي حديث آخر: «أخفى أوليائه بين عبادته، فلا تحقّرن من عبادته أحداً». بل رسم الإمام عليّ (عليه السلام) قاعدة للتعامل بين الناس بتصنيفه لهم: «أمّا أخوك في الدّين أو نظير لك في الخلق». وقد مارس (عليه السلام) هذا الأمر في حياته، فقد كان يصاحب في سفر له أحد النصاري، وفي الطريق أخبره (عليه السلام) بوجهة سفره، لكنّ الإمام (عليه السلام) حينما وصل إلى مفترق الطريق أكمل مسيرته مع صاحبه المسيحي، فالتفت المسيحي إلى ذلك سائلاً الإمام (عليه السلام) عن سبب عدم ذهابه في الطريق التي عبرها فأجاب (عليه السلام) بأنّ من آداب الصّحبة أن يشيّع الصّاحب صاحبه.